العدد 2362 - السنة الثامنة
الثلاثاء 2 ربيع الآخر 1437 - الموافق 12 يناير 2016
Tuesday 12 January 2016 - No.2362 - 8th Year

إعداد : ياسر السيد

تميزت أحكامه الشرعية بالحكم الربانية

الإسلام ..دين العقول الراجحة

إن من خصائص هذا الدين العظيم (الإسلام) ومما تميز به أنه دين لأولي الألباب والعقول الراجحة ، فقد تميزت أحكامه الشرعية وما فيه من أوامر ونواهي ومن سُنن أنها كلها ذات حكم ربانية تدعوا إلى الخير والرشاد وإلى صلاح الفرد والأسرة والمجتمع بل وحتى العالم أجمع ..فلو بحثنا في كافة الأديان الأخرى ، لوجدنا أنهم غيبوا عقولهم عمّا فيها من أحكام ومن أوامر ونواهي ومن فرائض وتشريعات ، فكانوا باتباعهم لها كالبهائم (أعزكم الله) وليس تشبيهي لهم بذلك تحقيرا.. وإنما هو ذاك حالهم ! لأنهم غيبوا عقولهم ، وأعمَوْا أبصارهم ، وصَمّوا آذانهم ، فنفذوا ما في تلك الشرائع المحرفة والأديان المتخرفة ، دون أي تفكير.. والبهائم (أعزكم الله) تنفذ ما يأمرها به راعيها وصاحبها دون تفكير بالعواقب .. تنفذ كل ما يُطلب منها سواء كان ذاك المطلوب أمر خير أو أمر شر..

ولكن شريعة الإسلام ما كانت كباقي الأديان.. فقد جعلت في أوامرها ونواهيها وأحكامها.. حكما جمة، وفوائدا كثيرة ، وَخيرا غير مُنقطع ، تحقيقا للمصالح الخاصة والعامة دون التعدي على حقوق الآخرين ومصالحهم ..لذلك كانت شريعة الإسلام ذات قبول عند كثير من الناس .. فمن عرفها لم يُنكرها ، ومن فهمها لزمها .. لأنه عرف أنها الخير كله .. وفهم أنها الحق بعينه.. فالشريعة الغراء تدخل القلوب عن طريق العقول..فلا تجعل من الإنسان إمّعة يتبع أحكاما وأوامرا ونواهي لا يعرف لما يتبعها.. بل دخلت إلى القلوب من منافذه الصحيحة .. فهي بأحكامها وأوامرها ونواهيها تلتمس العقل الراجح ، والفكر المتفتح ، والقلب المنشرح..فمن كان كذلك كان أشد الفاهمين لها ، وأكثر العارفين بها ، ولزمها أينما إلتزام..لأنه عرف أنها الحق وأنها هي السبيل للنجاة في الدنيا وما بعدها..

لو تعمقنا قليلاً لنضرب الأمثلة على دعوة الإسلام للفرد أن يتفكر في أحكام وحكم هذه الشريعة الغراء العظيمة ..فعن وابصة الأسدي ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يا وابصة ، استفت قلبك ، واستفت نفسك ثلاث مرات : البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » حديث صحيح رواه أحمد والدارمي ، وصححه النووي .

في هذا الحديث النبوي أمرنا نبينا الحبيب محمد – صلى الله عليه وسلم– أن لايكون الواحد منا إمعة يتبع أقوال الناس وفتاويهم حاجبا قلبه وعقله عنها..حيث أن الفطرة الصحيحة..أن يُحكم الفرد المسلم عقله وقلبه في كل أمره ، ويتبع الأمر الصواب الذي فيه الخير والرشد والصلاح ، والذي في حالة كونه كذلك فإنه بالطبع سيكون هذا الأمر هو الذي يُحبه الله ويرضاه..لإنه سبحانه وتعالى ما أنزل في هذه الشريعة الغراء إلى ما فيه صلاح الناس وصلاح الأنفس.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم :﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [سورة البقرة : آية 219]

لقد حرّم الإسلام الخمر ، وما كان تحريمه عبثا .. فلو كان فيه منفعة للناس دون مضرة .. لكان الإسلام أول المبيحين لشربه .. بل حتى أن نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – قد أشار علينا واستحبب لنا شرب الحليب (اللبن) .. وكذلك القرآن الكريم أشار إلى هذا الشراب السائغ ، يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [سورة النحل : آية 66] ، وأثبتت الدراسات العلمية الحديثة .. أنه لا يوجد مشروب في هذه الأرض فيه من الفائدة مثل الحليب (اللبن) ..لذلك عندما حرّم الإسلام الخمر .. لم يكن ذلك إلا للمصلحة الخاصة والعامة .. وقد أشار الله تعالى بأن ضرر الخمر أكبر من نفعه .. وهذا ما أكده العلم الحديث..

ولو أتينا أيضاً إلى مثال آخر.. الا وهو كيف تم تحريم الخمر في بداية الإسلام .. حيث كان ذلك على ثلاث مراحل مُتدرجة ..

1 – قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) : ثم : 2 – قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) : ثم : 3 – قوله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)

وكان هذا التدرج في التحريم.. مراعاة للمسلمين..حيث كما تعلمون كيف يكون تعلق شارب الخمر به : فهو كالإدمان .. فكان التحريم بالتدريج مساعدا على تركه بالتدريج..

وأيضا لو نظرنا في هذا التدرج أنه سبحانه وتعالى خاطب العقول والقلوب..حيث أنه في بادئ الأمر أوضح للناس أن الخمر فيه مضار كبيرة ، ومنافع قليلة .. وضرره أكبر بكثير من نفعه ..ثم سبحانه وتعالى.. أشار على المؤمنين أن من أراد الصلاة فلا يقربن الخمر.. فكان ذلك إشارة إلى العقول أن الصلاة هي عبادة يجب أن يكون فيها المؤمن واعيا أتم الوعي.. والخمر كما تعلمون يُذهب العقل ..

ثم سبحانه وتعالى جاء بالأمر بتحريمه .. حيث أشار إلى أن الخمر هو شراب مذموم من عمل الشيطان .. وقد وردت أحاديث نبوية عن خطر شرب الخمر وعن آثاره السيئة .. فلو تأملنا في هذا الحكم الشرعي في تحريم الخمر.. لوجدنا أن الشريعة الإسلامية.. لم تقم بتحريم الخمر عبثا .. ولم تقم بتحريمه جفاءً منها .. بل قامت بتحريمه وتوضيح الأسباب والحكم من ذلك .. وأيضا في جميع الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي والسنن النبوية.. لو تأملنا فيها لوجدنا أن العلماء قد استنبطوا منها حكما كثير .. وتوضيحا للأسباب الداعية للأمر أو النهي أو الاستحباب أو الكره .. بل حتى اننا في عصرنا الحالي ما زلنا نكتشف كثيرا من الحكم والإعجاز في الشريعة الإسلامية وكافة جوانبها ، وفي القرآن العظيم وسنة النبي الكريم ..

السمات العامة للعهدين المكي والمدني

على سبيل الإجمال، فإن فترة المدينة المنوّرة بصفة عامة لها سمات عامة تميزها عن فترة مكّة المكرّمة، وتستطيع أن تقول: إن فترة مكّة فترة بناء للفرد المسلم الصالح المؤمن بربه وبرسوله الكريم المعتقد في البعث والحساب ويوم القيامة، وفي دخول الجنة أو النار، كانت فترة بناء للأواصر القوية بين الجماعة المسلمة الصغيرة جدًا، كانت فترة تجنب للاستئصال قدر المستطاع، تارةً عن طريق التخفي، وتارة عن طريق تجنب الصراع بكل وسيلة ممكنة، وتارة أخرى عن طريق الهجرة إلى الحبشة، فقد هاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، والثالثة كانت إلى المدينة المنوّرة.

أما فترة المدينة المنوّرة فكانت فترة بناء للأمة الإسلاميّة بكل ما تعنيه الكلمة، فإذا كنا في فترة مكّة نبني أفرادًا، فإننا في فترة المدينة نبني دولة كاملة قوية بكل ما تحتاجه الدولة من مؤسسات، ولا شك أن هذه قضية شاقة وعسيرة، لكن بدأها الرسول بصبر وبدأ معه المؤمنون في هذا البناء الكبير، بناء أمة بكل الأصول والتفريعات.

إننا إذا أردنا أن نقيم (شركة كبرى) من لا شيء سيكون هذا أمرًا غاية في الصعوبة، فما بالنا إذا أردنا بناء أمة، فقصة البناء هذه من معجزات الإسلام؛ لأنه لم تقم أمة في هذا التوقيت بهذا المعدل السريع والبناء القوي والعمق الحضاري الرائع إلا في أمة الإسلام. بعض الدول قامت في وقت قصير، ولكنها أيضًا وقعت في وقت قصير، ولم تترك خلفها أي تراث حضاري يُذكر، فلو قارنا بين قيام أمة الإسلام وبين قيام أمة التتار، تجد أن أمة التتار أيضًا قامت سريعًا، وانتشرت انتشارًا هائلاً في الأرض، ولكن أين تراث التتار الآن؟! أين الميراث الحضاري لهذه الدولة؟ انتهى بالكامل، بل على العكس دخلت دولة التتار التي كانت تحتل مساحات شاسعة من العالم الإسلامي دخلت في الإسلام؛ لأن دين الله يختلف كُليّة عن كل قوانين البشر الوضعيّة، فهو دين غالب قاهر ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

لا شك أن بناء هذه الأمة واجه تحديات هائلة داخليّة وخارجيّة، داخل المدينة المنوّرة وخارجها، داخل الجزيرة العربيّة وخارجها، تحديات في كل جوانب الحياة، سلاسل متتالية من الصراع من أزمة إلى أخرى، ومن مشكلة إلى مشكلة أكبر، ومع ذلك تم بناء الأمة الإسلاميّة.

وهذا الأمر لم يكن حكمة بشريّة فقط من رسول الله مع أنه أحكم البشر، وأعلم الخلق ، لكنّ هذا وحيٌ من رب العالمين، هذا منهج إلهي صادق، كيف تُبنى أمة بهذا الإعجاز الواضح، وبهذا التوقيت المعجز؟! ففي غضون عشر سنوات فقط أصبحت دولة المدينة المنوّرة دولة معترف بها في العالم كله، لها قوتها ومكانتها ولها سفراؤها ولها مراسلاتها إلى كل بقاع العالم، ولها لقاءات حربية صارمة مع قوى كبيرة جدًا في موازين العالم في ذلك الوقت.

فهي تجربة رائعة حقًا وتستحق الدراسة، بل يجب دراستها جيدًا.

حقيقة الإسلام

الحقيقة أن الدين الإسلامي ليس مجرد صلاة وصوم وقيام ليل وذكر، بل هو منظومة متكاملة تحكم حياة الأفراد، وحياة المجتمعات، بل وحياة الأرض بصفة عامة، يقول ربنا I في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

تعلمنا في فترة المدينة كيف يكون المحيا لله رب العالمين في كل جزئية من حياتنا.

في فترة مكّة كان هذا يطبق على المسلمين، لكن لم يكن عندهم تشريعات، ولم تكن لهم دولة أو سياسة أو اقتصاد، فهذه الأمور لم تكن واضحة؛ لأن المسلمين كانوا جماعة صغيرة جدًا مضطهدة ومعذبة ومشردة، لكن الدستور الإسلامي وضح تمام الوضوح في فترة المدينة المنوّرة.

ومع كون المحلل للأحداث يجد أن فترة بناء الأمة تبدو في ظاهرها أصعب من فترة مكّة التي كانت فترة بناء للأفراد، إلا أنني أقول: إن الفترتين كانتا على مستوى واحد من الأهمية، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هناك أمة إسلامية قويّة بدون تربية مكّة، لن تُفهم فترة المدينة مطلقا دون الرجوع إلى فترة مكّة.

تربية مكّة كانت هي الأساس للصرح الضخم الذي بُني بعد ذلك في المدينة المنوّرة، إن الأساس قد لا يراه عامّة الناس، الأساس الذي يحمل فوقه عشرات الطوابق، لا أحد يراه، لكن العالمين ببواطن الأمور يقدّرونه جيدًا، يعرفون عمقه ومساحته وقوّته ومدى تحمله، وإذا كان الأساس ضعيفًا فما من شك أن البناء سينهار، قد يستمر فترة من الزمن، لكن مع أول زلزال أو هزة ولو بسيطة سينهار تمامًا. وما أكثر ما رأينا من دول –وربما كانت دولاً إسلاميةً– قد انهارت؛ لأن الأساس كان ضعيفًا والتربية كانت ضعيفة! وما أحداث (طالبان) منا ببعيد. نحن لا نشك في نياتهم أو أخلاقهم أو طباعهم أو عاداتهم، لكن البناء كان ضعيفًا والتربية كانت ضعيفة، ولأجل هذا كان الانهيار في فترة قصيرة؛ لأنها لم تدرس سيرة الرسول دراسة متأنية منهم، أو ممن وقع من أمثالهم في حلقات التاريخ المختلفة.

إنني أقول لكل العاملين على الساحة الإسلاميّة: إن دراسة السيرة ليست ترفًا فكريًا، إنما هي فريضة على كل من أراد أن يعزّ هذه الأمة أو يشارك في بنائها.

آيات ومخلوقات الله

في إحدى الدراسات تبين أنه يتذكر وجه من يؤذيه لسنوات طويلة

الغراب آية من آيات الله

هل تعلمون أن الغراب من أذكى أنواع الطيور؟ فهو يعالج الأمور بشكل يشبه البشر، يتوقع الأحداث ولديه خيال واسع.

تقول دراسة حديثة إن الغراب يعتبر أذكى أنواع الطيور. فهو يعالج الأمور بشكل يشبه البشر، يتوقع الأحداث ولديه خيال واسع. ولاحظت الدراسة أن الغراب لديه دماغ كبير وهو كائن اجتماعي.

وفي دراسة أخرى تبين أن الغراب يتذكر وجه من يؤذيه لسنوات طويلة، ويحمل في داخله الحقد لهذا الشخص.

في تجربة علمية تم عرض عدة وجوه على الغراب، وكل شخص كان يعامل الغراب بطريقة مختلفة والغريب أن الغراب تذكر هذه الوجوه وبخاصة الشخص الذي كان يحاول إيذاءه.

دراسات علمية أجريت في بريطانيا تؤكد أن الغراب يستطيع تمييز الأصوات البشرية بسهولة.

دراسة في جامعة أكسفورد أثبتت أن الغراب يخدع ويغش ويحتال للحصول على الطعام. فقد تم وضع طعام داخل إناء فاضطر الغراب لاقتطاع غصن (عود طويل) وأمسكه بمنقاره واستعمله لإمساك قطعة اللحم من الإناء.

هنا ومن أجل الحصول على الطعام يستعين الغراب بعود خشبي ويل من أجل التقاط قطعة اللحم من داخل الإناء، وهذه درجة عالية من الذكاء.

والسؤال الآن: كيف أشار القرآن إلى الغراب؟

لو كان القرآن من تأليف بشر لتحدث عن الغراب باعتباره مخلوقا لا يملك أي قدر من الذكاء، وهذه هي الفكرة السائدة عن الطيور والحيوانات وقتها على أنها لا تعقل ولا تملك أساليب تعلم. ولكن القرآن تحدث عن القرآن بشكل علمي يتفق مع الأبحاث العلمية الحديثة عن الغراب.

فقد تحدث عن الغراب على أنه معلم للإنسان، يفكر ويدرك ويتعامل مع الواقع بحكمة.. وكلنا يتذكر قصة قابيل وهابيل عندما قتل قابيل أخاه واحتار ماذا يصنع به فحمله على كتفيه وأصبح من النادمين، فبعث الله غرابين يقتتلان حتى قتل أحدهما الآخر، وعلى الفور حفر حفرة ودفن الغراب أخاه وبذلك علّم قابيل ماذا يفعل بأخيه وكيف يدفنه!!